الذاتُ المُتَعاليةُ في شِعْرِ المُتَوَكِلِ الليثِي

م.د.عبدالمحسن جاسم محمد الجابري

كلية التربية /جامعة القادسية

تسليم البحث : ٢٠١٧/١١/٢٠ قبول النشر: ٢٠١٨/١/١٧

الخُلاصَـــــةُ:

يصبو هذا البحث لدراسة ظاهرة (الذات المتعالية) في شعر المتوكل الليثي، تلك الذات المبدعة التي تتميَّز عن(الأنا) في واقعها الاجتماعي أو الاقتصادي، ومن خلال ذاته المتعالية استطاع أنْ يرسم لنا ملامح شخصيته في زمن عانى من اهله الاقصاء والتهميش، فظهر في شعره معتداً بنفسه مزهواً بها حكيماً راشداً، جاعلاً لحكمته مدارات اقتفى اثرها الناس، فكانت محلّ تداول الاجيال، أمّا الموضوعات الشعرية التي احتفى بها المتوكل سواء أغزلاً كان أم مدحاً أم هجاءً اتجهت في مسارات تتلاقى عند شعوره بذاته التي يتعالى بها على الآخرين.

والدراسة محاولة جادة للكشفت عن فضاء الشاعر، الذي تلوح في أفقه الذات المعبرة عن القيمة المهيمنة في (عالم الابداع) انطلاقاً من تجربته الخلاقة في اطار مفهوم(تقدير الذات) الذي يعنى بالحالة الوجدانية بعيداً عن الجانب الادراكي الخاضع لـ(مفهوم الذات) الذي يشير إلى الأنا الواقعية، وقد تجسدت تلك القيمة بنزوعه إلى السمو والعلو؛ إذ كان صفة متجذرة في شعره فبدا واثق الخطوة لايخوض غمار الشعر من دون أن تكون ذاته حاضرة متسربة في أفانينه، فذاته جمرة شعْرِه التي لم تنطفىء.

المُقدِّمَةُ:

يعدُّ المتوكل أحد اعلام الشعر العربي في العصر الأُموي، وقد اختاره ابن سلّام الجمحي (٢٣١هـ) أنْ يكون رأس الطبقة السابعة من الاسلاميين التي تضم إلى جانبه كل من يزيد بن مفرغ الحميري، وزياد الأعجم، وعدي بن الرقاع[١].

ولم يشغل المتوكل ذاكرة المؤرخين بما يتناسب مع شعره، فالمصادر عند ذكره قد جفَّ حبرها واخباره القليلة لم تسعفنا في معرفة حياته، وهو من الشعراء الذين لم يخدمهم حظهم، ولم

يُحطهم الزمان بحركته، على الرغم من أنَّ بعض شعره ردده الناس على مرِّ العصور، فما من أحد لايتمثَّل بقوله[٢]:{من الكامل}

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأتِيَ مثْلَهُ عارٌ عليكَ إذا فَعلْتَ عَظيمُ

وقد ذهب جامع شعره ومحققه(د.يحيى الجبوري) إلى أنَّ المتوكل أدرك عهد مروان بن الحكم وابنه عبدالملك، مستنتجاً ذلك في ضوء ما ذُكر له من قصائد عتاب أو مدح لبعض الولاة الذين تولى بعضهم الحكم في عهد المذكورَينِ السابقَينِ، ولم يؤتَ على ذكره بعد سنة(٨٥هـ)، فرجَّح الظنَّ أنَّ تلك السنة شهدتْ وفاته[٣].

ومن خلال استقرائنا لشعره تبين أنَّ اعتداده بنفسه والتغني بكفائتها والتعالي على الآخرين صارت ظاهرة في شعره، كاشفاً عن تجلياتها التي أصبحت محاور خارطة الطريق لبحثنا هذا، فتوزعت على مبحثَينِ وخاتمة، الأول منهما أفصحَ عن (الذات وتجلياتها) في ثلاثة محاور هي(الذات الشاعرة) و(الذات،الأنا) و(الذات،الحكمة) أمّا الثاني فتناول(الذات والآخر) فتجسد في(الذات والمرأة) و(الذات والممدوح) و(الذات والمهجو) وقد اقتصرنا على الآخر الانسان؛ لأنَّ البحث يعنى بالذات المتعالية على الآخر العاقل، ومن ثمَّ انتهينا إلى الخاتمة التي جنت ثمرة هذه الدراسة.

المبحث الأول

(الذات وتجلياتها الموضوعية)

الشاعرة،الأنا،الحكمة

لعلماء النفس والفلسفة عناية بمفهوم (الذات) لما له من أهمية في تكوين الشخصية وتقويمها، فتباينت الآراء بحسب اكتساب الشخصية للصفات المميزة، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنَّ مرحلة الطفولة تمثِّل خط الشروع في بناء الشخصية، ومنهم مَنْ اتجه إلى مرحلة النضج وقدرتها في اغناء تجربة الانسان واثرائها، وهناك مَنْ يؤكد على أنَّ اللاشعور الجماعي هو الذي يشكِّل احساس الشخصية وكيانها، ولم تخلُ ساحة علم النفس من الذين ذهبوا إلى أنَّ بناء الشخصية لايتحدد بمرحلة معينة، وإنَّما يكون في حالة نمو، وأنَّ الحياة من شأنها أنْ تكسب الشخصية اشياء جديدة، تعمل على تحصين ذاتها[٤]، ويتعلق هذا بالجانب الادراكي للفرد، فتتنازعه الصراعات البايلوجية والنفسية والاجتماعية المتمثلة في(الهو، والأنا والأنا الأعلى) وتتشكل شخصيته بحسب درجة التوازي التي تكون بين هذه المحددات، ومقدرة (الأنا) على حفظ ذلك التوازن بين الهو، والأنا الأعلى[٥]، ومن ثمَّ تُقيَّم (الأنا) على وفق أدائها السلوكي، وحسن ادارة التعامل من عدمه.

أمَّا بالنسبة للذات المبدعة فهي تُولد إلى جانب (الأنا) بعد أن يشعر الانسان بتميزه وكفائته في اجادة عمله، وايمانه بقيمة ذاته وانجازها، وهنا يحل مفهوم(تقدير الذات) محل (مفهوم الذات) فالأخير يُعنى بالجانب الادراكي، أمَّا الأول ــ وهو محل اهتمامنا في هذه الدراسة ــ فيُعنى بالجانب الوجداني الذي يخلق عالماً آخر يتيح للمبدع أنْ يُنجز عمله بحسب رؤيته وتجربته الخلاقة[٦] من دون أنْ يؤاخذ على ما يقوله، بمعنى أنَّ الانسان العادي لايستطيع أنْ يفخر ــ مثلاً ــ أو يرتاد أماكن تعلي من شأنه إذا لم يكن أهلاً لها في الواقع، أمَّا إذا كان شاعراً فقوله يصدر عن (الذات الشاعرة) لا (الأنا) الواقعية، وغياب التمييز يُوقع بعض الباحثين في الخلط بينهما فتُحلل الصور الشعرية في ضوء (الأنا) الواقعية، التي ينسلخ منها الشاعر ليعيش عالمه الجديد المختلف في أدواته وحديثه وجرأته وايقاعه، مما يدعو عند اصدار حكم ما على تجربة شعرية أنْ يتحسس صاحبه عالم الشاعر الابداعي ويعيشه من دون الرجوع المفرط إلى الواقع الحياتي، وايكال الاتهامات من مثل الاحساس بالنقص، أو الشعور بالدونية، أو الادعاء بما ليس فيه، فالشاعر يسعى لملئ لحظته الشعرية الابداعية المغايرة، التي جعلت منه متفرداً ومتميزاً.

وبناءً على ماسبق فإنَّ المتوكل عند فخره بشعره ونفسه ينطلق من ثقته بقدرته الابداعية، مغادراً (الأنا) مصوراً (ذاته الشاعرة) أمَّا إذا فخرَ بأبيه أو قومه، فتعود (الذات الشاعرة) إلى (الأنا) ليتآلفا ويصوغا رؤيته في ظلِّ العادات والتقاليد المجتمعية، فإذا ما وردَ الحكمةَ عاد لذاته الشاعرة مرتدياً ثوب الحكيم الذي يجعله محلَّ استقطاب الأفئدة والعقول ومهواهما، فالحكمة تُمثِّل تجربته الانسانية ورؤيته للكون والحياة وتأمّله في احوال النفس البشرية ونفاذ بصيرته بوصفه مبدعاً يمتلك القدرة على اختزال تلك التجربة بكلمات قليلة مؤثرة.

١ــ الذات الشاعرة:

لقد تغنّى المتوكل بذاته الشاعرة، معلياً من شأنها، عارضاً ذلك في تقاسيم شعره، الذي استطاع من خلاله أنْ يُطوِّع اللغة، ويمتطي صهوتها، قائلاً[٧]:{من الكامل}

وقصائدي فخرٌ وعِزي قاهرٌ متمنِّعٌ يعلو الجِبالَ جَسيمُ

نجده يرتفع بشِعْره وشاعريته الذروة العليا، لايرى لغيره بلوغها، فقصائده محلّ فخر له وللآخرين جاعلاً لفظة (فخر) نكرة فلم ينسبها أو يضيفها لضمير أو اسم، لتأخذ مدى أوسع في المعنى، كي لا تقتصر عليه، وهو دؤوب في تطلعه إلى التفوق منتشياً بموهبته الفذّة، عارفاً قدر نفسه مدركاً البون الشاسع بينه وبين غيره، قائلاً[٨]:{من الوافر}

فلستُ بشاعرِ السِّفْسافِ منهم ولا الجاني إذا أُشِرَ الظَّلاما

فهو يشعرنا بما يمتلك من مكنة في القول، ممسكاً بمعالي الأُمور، معرضاً عن سفسافها، محتقراً مَنْ أهان نفسه بارتياد الرذائل والصغائر، نافراً من الوضاعة، معلناً عن ذاته الأبية المستنكرة للغدر، ملمحاً بمروئته، ولايدعي قولاً لغيره، فيقول[٩]:{من الوافر}

قَهرتُ الشِّعْرَ قَدْ عَلِمَتْ معدٌّ فلا سَقَطاً أقولُ ولا انتِحالا

نراه يتعالى بموهبته الكبيرة متحدياً سطوة اللغة، ملمحاً إلى اكتمال أدواته ، مؤكداً على فكره النابه وخبرته بطرائق الكلام من دون أنْ يتكئ على أحد، مباهياً باقتدار ذاته على اثبات وجودها وتفردها في قول الشعر، مفتخراً بشاعريته التي قهرت الشعر نفسه، فالألفاظ تنثال عليه انثيالا من دون كد وتعب بعيداً عن التطفل أو ترديد ما قاله غيره، مما أثار حفيظة الآخرين، ذاكراً ذلك في قوله[١٠]: {من الوافر}

مُطَلَّبٌ بترِاتٍ غيرِ مُدْركةٍ مُحَسَّدٌ والفتى ذو اللبِّ مَحْسودُ

يقدم ذاته المشرفة مزهواً بتميزها الدائم، فتمرسه وحنكته وقدرته الشعرية تخلق اعداءً وحاسدين يحاولون النيل منه، فيعجزهم تألقه، مترفعاً عما يراه تافهاً، فعقله يُظهر تقدمه وفضله، ويُشعرهم بنقصهم فيتيه بقوة بأسه، ومايثيره من فزع عند خصومه، وسرعة انقضاضه عليهم، فيقول[١١]:{من الوافر}

أنا الصَّقْرُ الذي حُدِّثْتَ عنهُ عِتاقُ الطَّيرِ تَنْدَخِلُ اندِخالا

لقد اتخذ من الصقر صورة له، لما يتمتع به من صفات يحاول المتوكل أنْ ينسبها لذاته، الارتفاع الذي لايطال، والنظر الثاقب الحاد، والقوة التي تسعفه في اثارة الفزع عند الطيور الجارحة، فكيف بأليفها؟ فالمتوكل لايرى أحداً سواه، ولايقبل بمَنْ يزاحمه، وهو شعور بالعظمة مؤداه تصغير شأن الآخرين الذين يكيدون له، ويحاولون غمط مكانته في دولة الشعر، مؤكداً هذا المعنى في نص آخر فيقول[١٢]:{من الطويل}

خليليَّ غُضَّا اللومَ عني إنَّني على العهدِ لا مُخْنٍ ولا متوانِ
ستعلمُ قومي أنَّني كنتُ سُورَةً من العِزِّ إنْ داعي المنونِ دعاني
ألا رُبَّ مسرورٍ بموتِيَ لو أتَى وآخرَ لو أُنْعَى له لَبكاني

يعبِّر عن نفس أبية ترفض الفساد والضعف، وهو صفحة مشرقة من العز والكبرياء والأنفة، مبيناً تفوقه، متعالياً بذاته معظِّماً من شأنها، مفتخراً بها، فثبَّت المتوكل تفرده ونبوغه وموهبته الشعرية واحساسه بسمو مكانته، مواجهاً ظلم عصره له، وكأنَّه استشرف الزمان، وقرأ حال مَنْ يأتي بعده، الذي لم ينزِّله المنزلة التي يستحقها، فجعل من نفسه قسيم اثنين بعد موته، مسرور به لضآلته ــ أي الآخر ــ وخنوعه وذلّه، وباكٍ عليه لأنَّه ــ أي المتوكل ــ كان ساعياً في شعره للسمو

والرفعة والكرامة، فالذليلُ يسرُّ بموته، والأبيُّ يحزن عليه، لفقده شاعراً لا يعيش على موائد الآخرين، ولا يطلب ودَّ مَنْ هجره إذا ما شعر منه غضاً من قدره، فيقول[١٣]:{من المنسرح}

إنِّي إذا ما الخَليلُ أحدَثَ لي صرْماً ومَلَّ الصفاءَ أو قَطَعا
لا احتَسي ماءَهُ على رَنَقٍ ولا يراني لِبَيْنِهِ جَزِعا
أهْجُرُهُ ثُمَّ تَنْقَضي غُبَّرَ الـ هِجْرانِ عنِّي ولم أقُلْ قَذَعا

فهو لا يتجرع ماء الود على كدر، إذا ما أحس من صديق أو حبيب ملاً، ولا يُظهر جزعاً لفراقه ويعمد إلى هجرانه من دون أنْ يتعرض له بهجاء، وينبع ذلك من احترامه لنفسه وثقته بها، وترفعه على الاساءة، فشعره ذاته التي يحرص على صونها وحفظ تألقها، فتتجلى عنده القيم التي من شأنها أنْ تحافظ على مكانته، وتساعده في رفض أيّة اهانة مهما كان مصدرها.

٢ــ الذات،الأنا:

يتجلى هذا المحور عند فخر المتوكل بأبيه وقومه، فـ(الأنا) تعنى بهوية المرء واستمراريته[١٤] وهي لا تكشف عن قدراتها إلّا في ضوء الحاضنة الاجتماعية، لذا فإنَّه يعود إلى (أناه) الواقعية التي افرزتها المفاخرات القبلية ومنافراتها، بوصفه فرداً من افراد القبيلة والمجتمع، فيفخر بمآثر اهله وقومه ويتفنن في عرض صورها، ساعياً إلى توطين (الأنا) في ضوء (النحن) أي بما يذكره من مجد لقومه مقدماً صورة مثلى عن القيم القبلية التي ورثها عنهم.

إنَّ فخر المتوكل بأهله هو اثبات لـ(أناه) وترصينها بالذات الشاعرة، معززاً مكانته بين افرد المجتمع متباهياً بما ورثه عن أبيه، قائلاً[١٥]:{من الكامل}

إنِّي أبى ليَ أنْ أُ قصِّرَ والِدٌ شهمٌ على الأمرِ القوي عَزومُ

يعيد هنا ما يتمتع به من خصال كريمة تتجسد بالشهامة والقوة والعزيمة على انجاز الفعل النبيل إلى والده، متلمساً خطاه، فأخلاقه متأصلة متجذرة، يترفع بها عن اتيان الدنايا، ملوحاً بوراثة مجد تليد لاينقطع وهو يعمد إلى ترسيخ تلك المعاني مسترسلاً، فيقول[١٦]:{من الكامل}

وأنا امرؤٌ أصِلُ الخليلَ ودونَهُ شُمُّ الذُّرى ومفازةٌ ديمومُ
ولَئِن سَئِمتُ وصالَه مادامَ بي مُتمسِّكاً إنِّي إذنْ لَسَؤُمُ
لا بَلْ أُحَيِّي بالكَرامةِ أهلَها وأذمُّ مَنْ هو في الصَدِيقِ وَخِيمُ
وبذاكَ أَوصانِي أبي وأنا أمرؤٌ فَرعٌ خزيمةُ معقِلي وصميمُ

يصور المتوكل (الأنا) وهي ترفل بصفات حميدة، مجنباً نفسه صغائر الأُمور، متنقلة بين الوفاء والاخلاص، وبين الإباء وعزة النفس، ويعرض ذلك في ضوء وصية من أبيه، يحثه فيها على توخي مكارم الاخلاق، في اشارة إلى أنَّ هذه الاخلاق قد ورثها منه بوصفه أنموذجاً انسانياً تتعاظم

فيه القيم السامية، مؤكداً امتداده لهذا النموذج الذي استمد نهجه القويم من قبيلته، فكان فرعاً من أصل وأصالة سعى فيها إلى تثبيت الفضيلة ونشرها في ضوء امتزاج (الأنا) بالذات الشاعرة وتناغمهما، معززاً هذه الصورة في قوله[١٧]:{من البسيط}

إنِّي امرؤٌ أَعرفُ المعروفَ ذو حسب سمحٌ إذا حاردَ الكومُ المرافيدُ

اجري على سُنَّةٍ من والدي سبقتْ وفي أرومتِه مايُنْبِتُ العودُ

لقد سنَّ له والده سُنَّة تفيض بالخلق الرفيع، فيؤكد سعيه إلى تطبيق اكرم مآثرها، واسمى محامدها وهو يتطلع صوب العلى، متمثِّلاً الخلق العربي الأصيل، المنغرس في ارضية خصبة لا تُنبت إلّا مَنْ تمسَّك بها، متزيناً بتوحد حسبه بنسبه، معلناً عن أناه وتميزها، مستنفراً السماحة والندى، مستنكراً الغلّ والحقد، واللؤم، مؤكداً علو كعب قومه، فمقامهم إلى الآخرين مقام السماء إلى الأرض فيقول[١٨]:{من الكامل}

إنّا أُناسٌ تستنيرُ جُدُودُنا ويموتُ أقوامٌ وهمْ أحياءُ

قد يعلمُ الأقوامُ غير تَنَحُّلٍ أنّا نُجومٌ فوقَهم وسَماءُ

يفخر المتوكل بـ(أناه) من خلال اسلافه، فهم يمدونه بالعزة والرفعة والسمو، مشيراً إلى خلودهم في الدنيا، فأعمالهم تنير طريق الآخرين، معتداً بنفسه بوصفه من أولئك القوم، الذين كانوا نجوماً بل وسماءً فما من أحد يزاحمهم مكانتهم، مستعملاً صيغة الجمع من خلال استعماله لضمير المتكلمين (نا) ملمحاً إلى توحده مع افراد قبيلته، فتكون صورة الـ(نحن) هي صورة (الأنا) لتتفاعل وتتناغم مع صدى ذاته، التي تتعالى في سماء المجد، متقدماً الكل، قائلاً[١٩]:{من الخفيف}

إنَّنا مَعْشَرٌ خُلِقنا صُدُوراً من يُسوِّي الصُّدُورَ بالأَذْنابِ

يحرص المتوكل على اضفاء هالة من الفخر الكوني لقومه، فهم خُلقوا متصدرين، معززاً (الأنا) بحضور المجد القبلي، منطلقاً من حب العظمة والثقة بالنفس، واعلاء شأن قومه الذي ينعكس على اعلاء شأنه، لذا فهو معجب بنفسه أيما اعجاب، فلا يرى أحداً يتقدمه، فيبرز وسط قومه قائداً وآمراً مطاعاً فيقول[٢٠]:{من البسيط}

قومي إذا مالقوا أعدائَهُم صَبَرُوا واستورَدُوهم كما يُستوردُ العودُ

ترى نوادِرَ أطرافٍ بِمَزْحَفِهم والهامُ بينهم مُذرى ومقدُودُ

والمشرفيَّةُ قد فلَّت مضاربُها والسَّمهريَّةُ مُرفضُ ومقدودُ

وفتيةٌ كسيوفِ الهندِ قلتُ لهم سيروا وأعناقُهُم غبُّ السُّرى غيدُ

أرمي بهم وبنفسي مَهْمَهاً زَلِقاً وعُرضَ مطَّردٍ أكنافُهُ سُودُ

نراه يوظف فخره بقومه وتسجيله لما يتمتعوا به من شجاعة واقدام، ليكون باباً لتأكيد (أنـــاه) من خلال اشارته بصورة جلية إلى مكانته التي تؤهله أنْ يكون صاحب القرار فيهم، والقدوة الـــذي يقدم على خوض غمار الحرب والتعرض للأخطار معهم، ممجداً عملهم وعمله، مزهواً بذكر صفاتهم، مازجاً بين ضمير الغيبة الذي يعود على قومه وبين ضمير المـــتكلم (اليـــاء) ليثبـــت تمثيلـــه لهـــم وحضوره، ملفتاً انتباه المتلقي إلى منزلته الرفيعة وريادته عند قومه.

وهو يعمد إلى ترسيخ تلك الذات المتعالية التي تتنازع مع (أناه) من دون أن يتكئ علـــى مـــا ذكره آنفاً من فخر بأبيه أو بقومه، ليؤكد أنَّ فخره بهم جاء تلبية لعصبية قبلية فرضـــتها الظـــروف الاجتماعية، إذ لايبالي أن يقول[٢١]:{من الكامل}

لسنا وإنْ احسابنا كرُمت ممّن علـــى الاحسابِ يتكلُ
نبني كـــــما كانت أوائلُنا تبني ونفعلُ مثلَ مافعلـــوا

فالعظمة ملأت عليه حياته، وشعوره بما يحمل من مقومات تنهض بقواه الذاتية، ســـاعده فـــي انحسار (الأنا) التي تعيش في مجتمع يعدّها القيمة العليا للفرد، سعياً منـــه فـــي اســـتظهار الـــذات الشاعرة واعلاء قدرها، فيصبح شعره فخره، وأداته التي يستطيع أنْ يتعالى بها على الآخـــر الـــذي يحاول الانتقاص من شأنه أو مكانته الاجتماعية.

٣ــ الذات ،الحكمة:

الحقيقة هي الغاية التي يحاول التعبير الانساني البحث عنها متخذاً أطـــراً ومفـــاهيم متعـــددة لتحقيق ذلك، وتتجسد هذه الأطر والمفاهيم في الدين تارة، والفن بمختلف مجالاته المتنوعـــة تـــارة أخرى، ولاشك في أنَّ الشعر أحد الأطر التي يحاول الانسان من خلاله أنْ يعبر عـــن تجربتـــه فـــي الحياة، معتمداً على تأمله وتبصره في شؤونها، ومن ثمَّ تتحقق الحكمة عند الشاعر ليبـــرهن علـــى مقدرته في معاينة الأمور ودقائقها وهي ثمرات العقل الانساني والاحساس الفكري بالحيـــاة، مقـــدماً خبرته وعصارة جهده في تصوير واقع عصره، وماورثه من قيم واخلاق في رؤيـــة شـــاملة حيـــة يطبعها بطبعه فتفصح عن ذاته، والحكمة في الشعر مصونة محصنة بالقافية والوزن لايمسها تغيير ولاتبديل فـــ(لايزال الشعر عاطلاً حتى تزينه الحكمة ولاتزال الحكمة شاردة حتى يؤوبها بيـــت مـــن الشعر)[٢٢] فتتميز بحضور متجدد،إذ تتناقلها الناس جيلاً بعد جيل.

والمتوكل احد الشعراء الذين جادت الحكمة على لسانه، فتمثَّلهـــا شـــعراً، مستعرضـــاً قدرتـــه التعبيرية في صياغتها دالاً على ذاته من خلالها، وكشفت حكمته عن امتلاكه لنشاط فكري، ورياضة عقلية، وتأمل في مظاهر الحياة الاجتماعية، ومثالية يحـــاول أنْ يحققهـــا علـــى صـــعيد الابـــداع،

فموضوعات حكمته تنصرف إلى اخلاق الانسان وعلاقته بمجتمعه، سعياً منه لتشخيص الداء، ورغبة في معالجته، فيقول[٢٣]:{من الكامل}

وإذا أهنتَ أخــاكَ أو أفرَدتَهُ عَمْداً فأنتَ الواهِنُ المذمــومُ
لاتتَّبعْ سُبُلَ السفاهَةِ والخَنــا إنَّ الســفيهَ معنَّفٌ مــشتــومُ
وأقمْ لِمن صافيتَ وجهاً واحداً وخليقــــةً إنَّ الكريمَ قــــؤومُ
لا تَنْهَ عن خُلُــقٍ وتأتي مثلَــهُ عــــــارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

الأبيات هذه تناولت مظاهر اجتماعية من خضم الواقع المعاش، التقطها المتوكل بعين المتفكــر المتبصر، الذي يتحسس الاشياء فيعرف جوهرها وما تؤول إليه بحسب توجيهها سلباً أو ايجاباً، لذا تعالت نبرته المعبرة عن ذاته بوصفها المرجع والمآل، منتجاً حكمته التي اخذت مداها عبر الاجيال، تلك الحكمة التي حثَّ فيها الانسانَ أنْ يكون صائناً للسانه، متحكماً بعقله، صادقاً مع اخيه الانســان، متجاوزاً النفاق فلا يقوم بعمل يستنكره من غيره، ونلحظ استعمال المتوكل صــيغة الآمــر الجــازم، لتكون القيمة المهيمنة في تضاعيف هذه الأبيات، تأكيداً لحضوره، مقرناً كل حكم بسببه، جاعلاً مــن أبياته متواليات اخلاقية لتصويب المنهج السلوكي للحياة الاجتماعية، مستنهضاً القيم والاخلاق التي تنآى بالانسان عن فعل القبيح.

وهو دؤوب في محاولاته لتصوير حالات الفساد المنتشرة في مجتمعه، معبراً عن رفضــه لمــا آلت إليه الاوضاع، فيقول[٢٤]:{من الكامل}

لا أرفِدُ النصحَ امرءاً يغتشُّني حتّــى أموتَ ولا أقولُ حَميــمُ
لَمبعدٍ قربــي يَمُتُّ بدونِــــها إنَّ امرءاً حُرِمَ الهــدى مَحْرومُ
تلقى الدَّني يذمُّ مَنْ ينوي العُلى جَهْــلاً ومتْنُ قَنــاتِه موصُــومُ
فِعْلَ المُنافِقِ ظلَّ يأبِنُ ذا النهى في دينِــهِ ونِفاقُــــهُ مَعْلــــومُ

يتسامى هنا بذاته عن فعل الدنايا، ويتعرض لمظاهر المخادعة والمراوغة التي لايطال منهــا صاحبها إلّا الهوان والازدراء، فالمحروم ينضح بما فيه من عيوب وعقد يحاول من خلالها الانتقاص من طموح اصحاب العقول المتوجهين نحو العلى، لذا عمد المتوكل إلى كشف السلوك المشين، ملمحاً لما عاناه من عداوة وبغضاء ثمناً لاعتداده بنفسه واحترامه لها وصونها من الانزلاق نحو الرذيلــة، معبراً عن تجربته في الحياة التي سبر فيها اغوار تلك النفوس، فندَّ عن حكمة توَّج بهــا اســتنكاره للعمل الدنيء.

وعند ذكره للموت نراه عاقلاً متأملاً، لا يُظهر انكساراً أو حسرة، قائلاً[٢٥]:{من البسيط}

لمَّا رأتْ أنَّني لا بدَّ منطَلِــــقٌ وللفتى أجَلٌ قد خُطَّ معــدودُ

قامتْ تُكرُّهني غَزْوى وتُخْبِرُني أنْ سوف يُخْلِدُنِي رَوْعٌ وتَبْليدُ
هلِ المنيةُ إلّا طالِبٌ ظَفِـــــرٌ وحَوْضُــها مَنْهَلٌ لا بدَّ مورودُ

عند تأملنا بهذه الأبيات نتلمس مسحة عقلية طغت على معانيها، يحاول المتوكل مــن خلالهــا اقناع المتلقي بها، فنجده غير مكترث، لايأبه للمكاره، مواجهاً جلــداً، مســتوعباً القــدر المحتــوم بموضوعية بعيداً عن العاطفة، متسائلاً باستنكار عن جدوى الهروب من الموت الذي لا بدّ منه، فهو يسعى جاداً إلى السمو والرفعة من دون أنْ يفت في عضده روعٌ أو خوفٌ لأمرٍ ليس للانسان خيــارٌ اتجاه موعده غير القبول فالاستسلام للموت ــ الغالب المنتصر ــ بكرامة أهون بكثير من الاستسلام للخوف بمذلة، وما نسجه من حوار مع (المرأة اللائمة أو العاذلة) إلّا ليعبر في ضــوئه عــن ذاتــه المتعالية التي تواجه ذلك الصوت الذي يتردد في نفسه ليخضعه لملذات الحياة، مســتظهراً رباطــة جأشه، معولاً على ما يتمتع به من اعتداد بالنفس، ومكابرة تعمل على تذويب الأهوال أمامه، فنطق بحكمة توافق طبعه، منسجمة مع ذاته.

إنَّ حكمة المتوكل مزيج من العقل والشعور، والموضوعية والذاتية، تلــك الموضــوعية التــي تؤسس عليها الفكرة فيكون (منطلقها من الوجود الواقعي المحسوس، وذاتية في اخراجها بالصــور وتلوينها بألوان الخيال والصور)[٢٦] وهي تتوافر على مخزون معرفي، وتجــارب خصــبة، ومكنــة تعبيرية، ترسخ ذاته وتؤهله أنْ يكون مقنعاً للمتلقي.

المبحث الثاني

(الذات والآخر)

لا شكَّ في إنَّ ضياع اخبار المتوكل ادى إلى تقليل معرفتنا بعلاقته مع الآخر، ولكننا نحاول من خلال شعره أنْ نتحسس تلك العلاقة، التي تأرجحت بين الودِّ وعدمه في ظلِّ نظرة الآخر له وتعاملــه سلباً أو ايجاباً (فالوعي الشعري لا يمكن أنْ يوجد إلّا في الآخر بأنْ يعيش انفتاحه عليــه، لأنَّ هــذا الانفتاح سبيله الوحيد لكي يمارس ذاته وفعاليته)[٢٧] وقد تجسد انفتاح المتوكل بما رسمته ذاته مــن علاقة مع المرأة والممدوح، والمهجو.

١ــ الذات والمرأة:

يشغل حضور المرأة في شعر المتوكل مساحة كبيرة، فأغلب قصائده قد افتتحها بالنسيب، وهو نهج تمثَّله وسار عليه، بوصفه النظام التقليدي للقصيدة العربية القديمة، وشعره لم يقتصــر علــى امراة واحدة وإنَّما تعدَّد في ذكر اسماء النساء، وهذا يعني أنَّ الواقع الشعري لــيس بالضــرورة أنْ

يكون واقعاً حقيقياً كما أشار إلى ذلك ابن رشيق (٤٥٦هـ) في قوله (وللشعراء اسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً)[٢٨] فمستويات النص الشعري تختلف من حيث التعبير والدلالة فبعضها يكون مباشراً، وبعضها الآخر غير مباشر، إذ تتجه إلى الرمزية، لتعبر عن موقف نفسي، وإنْ بدت صورته صريحة[٢٩]، فالمتوكل يشبِّب بالنساء ويأتي على ذكر أوصافهن المادية، ويشكو شدة الوجد وألم الفراق بالشكل الذي يرضي رغبته ومقصده في ميل القلوب نحوه، وصرف الوجوه إليه (وليستدعي به اصغاء الأسماع إليه، لأنَّ التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب)[٣٠] ويعرض ذلك في صور جميلة تتداخل مع ما يريد تثبيته من فخر بنفسه، واعلان ذاته التي تتفوق على مثال المرأة، لتكون مدخلاً لمديحه أو هجائه فيخلق المعنى في ضوء التزامن بين موضوعات قصيدته مبرزاً ذاته المتعالية.

ومن النماذج التي يؤكد المتوكل بها اعتداده بنفسه، ويسعى لتمجيدها، قوله[٣١]:{من الكامل}

ابلِغْ رُمَيْمَ على التَّنائي أنَّني وصَّالُ إخوان الصَّفاءِ صَرُومُ
أرعى الأمانةَ للأمينِ بحقِّها فيبينُ عَفَّاً سِرُّهُ مَكتُومُ
وأشدُّ للمولى المُدَفَّعِ رُكْنُهُ شَفَقاً من التعجيزِ وهو مُليمُ

إنَّ الوجود الحقيقي يتحقق عند مواقف الذات اتجاه فعلها الانساني في اطار المثل العليا، وهذه الأبيات نجدها تتنفس الوفاء، والاخلاص، والأمانة، والنجدة، والمروءة، وهي سجايا يتغنى بها المتوكل بوصفه مثالاً لها مستحضراً المرأة ليتباهى بذاته في بيئة تحتفي بالقيم الاخلاقية التي تعرضت إلى أزمة بسبب ماآلت إليه الظروف الاجتماعية والسياسية في عصره، فالمرأة تتجاوز في ذاته كونها أحد طرفي غرامه، إلى رغبة يعمد لتحقيق وجودها على مستوى الوعي الشعري، لاستظهار ذاته الشاعرة التي يترسخ فيها وجوده.

ويؤكد المتوكل هذه المعاني التي تشير إلى اعلاء قدر ذاته، قائلاً[٣٢]:{من الوافر}

صِليني واعلَمي أنِّي كريمٌ وأنَّ حلاوتي خُلِطَت عُراما
وأنِّي ذو مدافعةٍ صَلِيبٌ خُلِقتُ لِمن يُضارسني لجاما
فلا وأبيك لا أَنساكِ حتَّى تُجاورَ هامتي في القبرِ هاما
لقد عَلِمتْ بنو الشَّدَّاخِ أنِّي إذا زاحمتُ اضطَلَعُ الزِّحاما

نشهد هنا فاعلية الذات وحضورها من خلال تكرار ضمير (المتكلم) الذي ينفتح على صور البطولة والقوة، والصلابة، والوفاء، والقدرة على القيام بالامر والاضطلاع بالمهام الجسيمة من دون أنْ يكون له فيها ندٌّ أو عائق يحول بينه وبين اتمامها، وهو يحرص على بيان تفرده وتميزه، مماجعله أنْ يكون محل ثقة عند قومه، ونستشف من خلال خطابه مع (المرأة) أنَّه يتجه لخلق مثال

جمالي لذاته ينبثق من وعيه بالجمال المطلق، الذي يتأسس على رؤية خاصة به فـ(الشاعر الجيد لا يشاكل بصوره الواقع الذي يصوره مشاكلة حقيقية، لأنَّه يصور هذا الواقع في ذاته، ولكنه يعكس رؤيته له، ومن ثمَّ فإنَّه حين يعرض تصويره يحرص على أنْ يخلق صوره خلقاً جديداً، ويعكس هذه الرؤية أو تلك)[٣٣] وعلى هذا المبتنى يحقق المتوكل غايته في خلق صورة لذاته لتكون المثال والمبتغى عند الآخر.

ويعبِّر في نصٍّ آخر عن شعوره بالعزة والأنفة والإباء، رافضاً المراوغة والمماطلة والخداع من الآخر، فيقول[٣٤]:{من الوافر}

تُعَبِّسُ لي أُمَيَّـةُ بعـدَ أُنْسٍ فـما أدري أسُخْـطاً أم دَلالا
أبيني لي فرُبَّ أخٍ مُصـافٍ رُزِئتُ ومـا أُحِبُّ بـه بـدالا
أصُـرمٌ منكِ هذا أم دلالٌ فقـد عنَّى الـدلالُ إذنْ وطـالا
أم استبدلتِ بي ومَلِلْتِ وصلي فبُوحي لي بـه وذَري الخِتـالا
فلا وأبيكِ ما أهـوى خليـلاً أُقاتِلُـه علـى وصـلي قِتـالا

إنَّ المتوكل يهدف من وراء توظيف هذا العتاب المسَبَّب بينه وبين المرأة للاشادة بذاته التي ترفض الهوان والتلاعب ، فلا يرهنها لأحد وإنْ كان ذلك على حساب فقدان صلته به، فما يقدمه من مشهد للمرأة الغامضة، إنَّما ينوي به المشاكلة مع غرضه الرئيس في القصيدة ، الذي هجا فيه أحد رجال السلطة[٣٥] منتفضاً لذاته التي شَعَرَ في ضوء سلوك الآخر اتجاهه بتهميشها، وعدم الاحتفال بها بما يتناسب مع قدرها وقيمتها في عالم الابداع.

ويتعالى بذاته فهو لا يألو جهداً بتجنيبها التذلل والخضوع، مخاطباً احداهنْ، قائلاً[٣٦]:{من الكامل}

أبلِـغْ حَبيبةَ أنَّني مُـهْدٍ لـها ودِّي وإنْ صَرَمتْ جديدَ حبالي
إنِّي امرؤٌ ليس الخَنا من شِيمَتي وإذا نَطقتُ نَطقتُ غيرَ عِيالِ
نَزَلَتْ حبيبةُ من فُـؤادي شُعْبَةً كانت حِمىً وَحْشاً من النُّـزَّالِ
وَوَفَتْ حبيبةُ بالذي استَودَعْتُها وركائبي مَشْدودةٌ برحـالي
لا تَطْـنُزِي بي ياحبيب فـإنَّني عَجِلٌ لمن يهوى الفِراقَ زوالـي
كم من خليلٍ قد رفضتْ فلم يجدْ بعـدي لموضعِ سرِّهِ أمـثالي
أبدى القطيعةَ ثمَّ راجعَ حلمَـهُ بعـد استماعِ مقالـةِ الجُهَّالِ
إنِّي امرؤٌ أصلُ الخليلَ وإنْ نأى وأذبُّ عنه بحيلـةِ المُـحتالِ
من يُبْلِني بالودِّ يوماً أجـزِه بالقـرضِ مثلَ مثالـه بِمثالـي
فَصِلي حبيبَتَنا وإلّا فاصـرمي أعـرف وتَقصُرُ خُطوتي وسُؤالي

نراه يبذل الودَّ والمحبة لـ(حبيبة) على الرغم من قطعها لوصاله، ولكن سرعان ما يتوقف لبرهة يقطع حديثه عنها إلى الفخر بنفسه، فليس من شيمته الغدر، وهو فارس الكلمة البكر، لا يتكئ على قول أحد ملمحاً إلى ما يمتلكه من مقدرة تعبيرية تؤهله أنْ يعلن تميُّزه في مضمار البيان والفصاحة، منوهاً إلى ذاته قبل أنْ يسترسل في البوح بما ينفِّس عن خواطره المكلومة، التي تترجم مشاعره اتجاه (حبيبة) إذ استطاعت هذه المرأة أنْ تنتزع من قلبه مكاناً بعد أنْ كان قفراً، غير أنَّ العلاقة بينه وبينها لم تستبن عنده لما شابها من غموض وفتور، فقد شَعَرَ بمراوغتها ومماطلتها، ممّا دعاه ذلك إلى عقد موازنة بين متطلبات قلبه الشغوف المحب وبين ذاته المترفعة التي تتنازعها متطلبات العقل والحكمة لتسمو به في عالم الكرامة، فتمثَّلت له السجايا الطيبة التي قطعت حبل الوصال بينه وبين (حبيبة) مخيراً إياها إمّا أنْ تكون بمستوى ما وصف به نفسه من معاني الوفاء، والاخلاص، والوضوح من دون ختل أو ريبة وإمّا أنْ تقطع فيقطع، فتقصر خطوته، وينتهي سؤاله.

إنَّ التنوع في خطاب هذه الأبيات من ضمير المتكلم إلى المخاطب إلى ضمير الغيبة وبالعكس يكشف عن القلق الفكري الذي عاشه المتوكل ــ بوصفه شاعراً ــ بين ذاته التي تطمح لتجسيد المثل العليا وبين ما تختزنه الحياة من مصاعب وتحديات تفرض عليه بعض التنازل، وسرعان ما يعود إلى ذاته المحلقة في سماء الاباء والعزة، ليستطيل بها على مَن أراد تصغيره أو النيل منه، فلا يمكِّن من نفسه الدنية، مؤكداً رفضه لأيِّ نوع من انواع السخرية به فليس هو ممَّن يحتمل الذلّ والقهر.

وتبلغ هذه النزعة المتعالية عند فخره بنسبه وحسبه، وهو يطلب من احدى النساء الاستخبار عنه، فيقول[٣٧]:{من الكامل}

يا رَيْطَ يارَيْطَ ألم تُخْبَري عنّا وقد يَحْمِدُنا السائلُ
والجارُ والمُختبِطُ المُعْتَفي معروفَنا والآخرُ النازلُ
إنْ تسألي عنّا يَقُل سادةٌ فيهم حلومٌ وندىً فاضلُ
نُهينُ للضَّيفانِ شَحْمَ الذُّرى فمنهمُ الواردُ والنَّاهلُ
نحنُ بنو الشَّدَّاخ لم يَعْلُهمْ حافٍ من النَّاسِ ولا ناعِلُ

لا تختلف المرأة هنا عن الأُخريات اللاتي ذكرهنْ المتوكل في قصائده، فهذه القطعة الشعرية من قصيدة افتتحها بالنسيب معاتباً (ريطة) على هجرها له وعدم وفائها وايفائها

مستكنهاً جدلية العلاقة بينهما، تلك العلاقة المتأرجحة بين حالة اللاستقرار التي مثَّلتها (ريطة) وحالة الاستقرار المتمثِّلة بثباته واخلاصه، مفصحاً عن انفعاله الهادر انتصاراً لكرامته، فنجده يكرر النداء للمرأة (يا ريط يا ريط) وكأنَّه يريد تنبيهها إلى (أناه)، فالشاعر (يخضع للنزوع اللاشعوري من حيث كونه قوة دافعة لرغباته الطموحة إلى مبدأ ارادة التفوق في محاولة اثبات الذات وتأكيد الوجود)[٣٨] مؤكداً علو شأنه، فكان المتوكل هو عين الحدث من خلال بناء الفعل (تخبري) للمجهول، فبناء الفعل للمجهول أتاح لعملية الخلق الفني آفاقاً رحبة تجسدت في تمكين الحدث الفعلي الذي يقصده المتوكل وهو تمجيد (أناه)، فبدأ يعدد الجهات التي من شأنها أن تخبر(ريطة) وتشهد بنسبه وحسبه المتفوقَينِ على الناس جميعاً، فالناس بين حاف ومنتعل، فأي فخر بعد هذا الفخر ، وأي احساس بالسمو والتعالي لم يشتمل عليه قوله؟

لقد مثَّلت المرأة في شعر المتوكل النافذة التي يطلّ من خلالها بذاته التي تطمح أنْ تكون هي الأول والآخر الثاني.

٢ــ الذات والممدوح:

لقد نظّم الشعراء قصائدهم في مدح الآخر، رغبة منهم تارة أو رهبة تارة أخرى، ونجد الشطط والاسراف أو الحق والانصاف في قولهم، فمنهم مَنْ كان همّه التكسب فيبذل طاقته في اضفاء الصفات العظيمة للممدوح الصادرة من طرف لسانه بعيداً عن قرارة نفسه، ومنهم مَنْ مدح بدافع نشر الفضائل والمناقب، ومنهم مَنْ مدح انطلاقاً من ذاته المتصدرة للقول والمقام، فظلُّ ذاته لا يغيب عن أبيات مديحه للآخر، وبناء على ما سبق (كان اهتمام أولي الأمر والسلطة الشديد بالمديح، وكان عطاؤهم ومحاسبتهم لشعرائه ينمّ عن معرفة ووعي بخطورته، وكان كذلك حال الشعراء في استعدادهم له وارهاقهم انفسهم في سبيله وتنافسهم المحموم في ميدانه)[٣٩] والمتوكل هو أحد هؤلاء الشعراء الذين كان لهم جولة وصولة في ميدان المديح من دون أن ينسى التذكير بسمو نفسه وعلو مكانته، ومن هذه الاشارات الواضحة في مديحه لعكرمة بن ربعي، قوله[٤٠]:{من الوافر}

سأُهدي لابن ربعي ثنائي وممّا أن أُخصَّ به الكراما
لَعكرمةُ بن ربعي إذا ما تساقا القومُ بالأسل السِّماما
أشدُّ حفيظةً من ليثِ غابٍ تخالُ زئيرهُ اللَّجب اللُّهاما
أخو ثِقةٍ يُرى بيني المعالي يضيمُ ويحتمي من أن يُضاما

افتتح مديحه بالاشارة إلى ذاته المانحة والواهبة لهذه الهدية المتمثِّلة بالسجايا الكريمة التي اضفاها على ممدوحه (وما تؤكده الهدية أنَّ ذات الشاعر ندٌّ هنا للممدوح وشريك كامل له في الفعل أي أن الوعي الشعري سيكون منحة للآخر حين يدمجه في ذاتيته ويشركه في الفعل الشعري)[٤١] فيتحول الآخر إلى مثل انساني تتحقق فاعليته في المجتمع، وتكون ذات الشاعر هي الموجه لهذا المثل والفاعل الجمالي الذي يرسخ ماهيته.

ويسبغ المتوكل في نص آخر على ممدوحه صفات عربية اصيلة، تنسجم مع ذاته، فيقول[٤٢]:{من الوافر}

رأينا حوشباً يسمو ويبني مكارم للعشيرة لن تنالا
ربيعاً في السنين لمعتفيه إذا هبتْ بصراد شمالا
حمولاً للعظائمِ أريحياً إذا الأعباء أثقلت الرجالا
وجدتُ الغرَّ من ابناء بكرٍ إلى الذهلين ترجَعُ والفضالا
بنو شيبان خيرُ بيوتِ بكرٍ إذا عدوا وأمتنُها حِبالا
رجالاً أُعطيت احلام عاد إذ انطلقوا وأيديها الطوالا
وتيم الله حيٌّ حيُّ صدقٍ ولكن الرحى تعلو الثفالا

نجد أنَّ هذا المديح قد تكون من قسمينِ، الاول منهما كان في الأبيات الثلاثة الأولى، التي تضمنت الثناء والاطراء على شخصية الممدوح، فذكر كرمه ومروءته ونجدته، وكان في الأبيات الأربعة التي تليها مادحاً قوم الممدوح الأقربين، مشيداً بقدرهم، ذاكراً منزلتهم الرفيعة عند قبيلتهم.

وممّا نلحظه في هذه الأبيات أنَّ المتوكل قد بدأهما بجملة فعلية، ليوحي بهما إلى أنَّ الأمر قد يتغير بحسب ما يشهده من فعل كريم اتجاهه، مسنداً تلك الجمل الفعلية إلى الضمير (نا) في القسم الأول وهو تعبير ذو حدَينِ، إمّا أنْ يكون اشارة منه إلى عظم قدره، وإمّا أراد به أنْ يعبر عن (الذات الجماعية) ليوهم المتلقي بانطلاقه من رؤية الناس بالممدوح، خشية من أنْ يوصف بالمتزلف المتملق للسلطة المتمثِّلة بـ(حوشب بن زيد) الذي كان يشغل منصب صاحب شرطة الكوفة، فكان استعماله لهذا الاسلوب ناتج من اعتزازه بنفسه واعتداده بها، إذ نراه في القسم الثاني الذي خصَّ به قوم الممدوح قد استعمل ضمير المتكلم المفرد، ليعيد لذاته وجودها وهيمنتها، فمدح الآخر ينطلق من ذاته المتعالية المستجيبة لدوافع شعورية نابعة من سعيه في اثبات حضورها.

ونراه في مديحه لـ(يزيد) وهوالنص الوحيد، قد تعالى بذاته، واصفاً شخصه بـ(الحر)، قائلاً[٤٣]:{من الطويل}

أبا خالدٍ في الأرضِ نأيٌ ومَفْسَحٌ لذي مِرَّةٍ يُرمى به الـرَّجَوانِ
فـكيفَ ينامُ الليلَ حُرٌّ عَـطاؤُهُ ثلاثٌ لرَأسِ الحَـولِ أو مِئَتانِ
تناهَتْ قَلوصي بعدَ آسادي السُّرى إلـى ملكٍ جزلِ العَطاءِ هِجانِ
ترى الناسَ أفواجـاً يَنُوبُونَ بابَهُ لِبْـكرٍ من الحاجـاتِ أو لِعَوانِ

لم تتجاوز أبيات المديح في هذه القصيدة المؤلفة من سبعة وأربعين بيتاً خمسة أبيـات، شـكا فيهن المتوكل غياب الانصاف والتقدير له، فلم يُنزَّل المنزلة التي يستحقها، منوهاً وواصـفاً نفسـه بكلمة (حر) التي أتى بها نكرة لتمنحه زخماً من الدلالة، ولنستشفّ إلى جانب تنكيرها اطلالة واسعة في المعنى توحي بتعظيم شأنه ولفت الاهتمام والعناية به، فهو لا يستجدي العطاء ولا يتزلف طمعـاً أو جشعاً، وعلى الرغم من قساوة الزمن وانكفائه عليه إلّا أنَّه لم يتخل عن ذاته وأنفتها، محاولاً قدر استطاعته التلويح بها والاشارة لها، فطالب بفسحة من العيش الكريم بوصفه شاعراً ذا عقل راجـح وانساناً حرّاً، لايحتمل ضنك العيش وذلّ الحاجة، ذاكراً ذلك أمام حاكم عُـرف باسـتعباد الآخـرين، وغالى بالظلم والتهور والنزق[٤٤].

ويسعى المتوكل إلى تأكيد حضوره من خلال صورة الممـدوح التـي تخلقهـا صـورة ذاتـه، فيقول[٤٥]:{من الطويل}

مدحتُ سعيداً واصطفيتُ ابن خالدٍ وللخير اسبابٌ بهـا يُتوسَّمُ
فكنتُ كمـجتسٍّ بِمحْفـارِه الثرى فصادفَ عَيْنَ الماءِ إذ يَترسَّمُ
فإنْ يسْألَ اللهُ الشهـورَ شهـادةً تُنبِّئ جُمادى عنكمُ والمُحـرَّمُ
بأنَّكمـا خيرُ الحجازِ وأهلـهِ إذا جعلَ المُعطِي يملُّ ويسـأمُ

فنراه يشبه نفسه بصاحب المحفار الذي يتحسس عيون الماء بفراسته ودوام التأمل المفضـي إلى الهدف المنشود، فإذا ما وضع يده على ضالته اعلن عنها لتكون سبباً للناس ينعمون بخيرهـا، ومن تضاعيف هذه الصورة حاول المتوكل أنْ يستخرج صورة لممدوحَيهِ اللذينِ غمر خيرهما الناس، فأشار إلى عطائهما الجزل، وفضَّلهما على اهل الحجاز، مانحاً لنفسـه الحـق فـي مـا يقولـه، إذ اصطفاهما من دون الآخرين، فأصاب القصد والاختيار، واضعاً ثناءه موضعه، محققاً سمو ذاته، تلك الذات التي تتمثَّل بمرجعيتها الفردية والجماعية لتظهر بعد ذلك قدرتها على التمركز والتعبيـر فـي ضوء المسار المعرفي والاجتماعي بوصفهما المكونَينِ الاساسَينِ في الذاكرة الفردية.

٣ــ الذات والمهجو:

يقوم الهجاء على سلب المناقب والسجايا الكريمة من الانسان، ويحاول الشاعر فيه تصوير الآخر بكل ما يمت لدائرة الانحطاط من قدره، وعرضه على المتلقي بما يثير اشمئزازه، وطالما اقترن الهجاء بالفخر، فهما غرضان متلازمان، ففي الوقت الذي يقوم فيه الشاعر بسلب الصفات الحسنة من المهجو يضفي النعوت الطيبة على نفسه وعلى قومه؛ ليغيض بها عدوه، فهمُّ الشاعر هو رد سهام العدو إلى نحره، مستعيناً بقدرته التعبيرية وثقافته التي تؤهله على مجاراة خصمه.

وفي ضوء ما نشهده من هجاء للمتوكل في شعره للآخرين، نجده ــ في الأغلب الأعم ــ لم يكن سبّاباً هتاكاً للحرم، وإنّما يقصد المهجو في شخصه، مجرِّداً إياه من مكارم تقلل من شأنه عند الناس، وهذا يعود لما عُرف عن المتوكل من عفة في القول، وترفع على خصومه، ومن ذلك قوله[٤٦]:{من الكامل}

بل رُبَّ مُعترضٍ ردَدْتُ جماحَهُ في رأسِهِ فأقَرَّ وهو لئيمُ
أغضى على حدِّ القذى إذ جئتُهُ وبأنفِهِ ممَّا أقولُ وسومُ
أنضجتُ كَيّتهُ فظلَّ منكِّساً وسطَ النَّدي كأنَّه مأمومُ
متَقَنِّعاً خَزيانَ أعلى صوتِهِ بعدَ اللجاجةِ في الصراخِ نئيمُ
اقصرْ فأنِّي لا يرومُ عضادتي يابنَ الجموحِ مُوَقِّعٌ ملطومُ
وإذا شَرِبْتَ الخمرَ فابغِ تعلةً غيري يئينُ بها إليك نديمُ
أنَّى تُحارِبُني وعودُكَ خِرْوعٌ قَصْفٌ وأنتَ من العفافِ عديمُ
ما كان ظهري للسِّياط مَظِنَّةً زمناً كأنِّي للحدودِ غريمُ

بدت ذات المتوكل متضخمة بإزاء الآخر، إذ عمد إلى تهوين شأن المهجو من دون أنْ يحدد اسماً أو يشير له بعلامة يُعرف بها، مستعملاً حرف الجر(ربَّ) الذي يفيد افراد واحد من الجميع[٤٧]، ليكون الكلام مطلقاً، فيعزز قيمة الذات، مصوراً فاعليتها وحضورها في ضوء البناء اللغوي لهذه الأبيات، فقد اتجه إلى الضمائر العائدة للمتكلم (التاء والياء) في تسعة أبيات، مستجمعاً فيها الصفات التي تعبر عن خلقه وشرفه الكريم وتميزه وتفوقه على الآخر، المتجسد في أسوء النعوت وأحطها، فتجلت العلاقة بينهما على وفق علاقة التضاد والنفي السلبي، مؤكداً التباعد بينه وبين خصمه من خلال ايراده الصفات المتناقضة، فما يحضر عنده من شرف الخلق يحظر على عدوه، وهو يتباهى بقوته وصلابته ومناجزته، كاشفاً عن ضآلة الآخر، قائلاً[٤٨]:{من البسيط}

أعيَتْ صَفاتي على مَن يبتغي عَنَتي فما يُوَهِّنُ متنَيْها الجلامِيدُ
كم قد هجاني من مستقتِلٍ حَمِقٍ فيهِ إذا هزَّ عندَ الحقِّ تغريدُ

جانٍ علـــى قومِـــــهِ بادٍ مُقاتله كالعَيرِ أحـــزنَهُ دجْنٌ وتقييدُ
كأنَّه كَـــــودَنٌ تَدْمَـــى دوابِرُهُ فيهِ من السَّوطِ والساقَيْنِ تَربِيدُ
كَزُّ الندى مجـــدُهُ دَينٌ يؤخِّـــرُهُ ولؤمُهُ حاضـــرٌ لا بدَّ منقودُ
من معشرٍ كُحِلـتْ باللؤمِ أعيُنُهـــم زُرقٌ بهـــم مَيسمٌ منه وتقليدُ
ما زلتُ أقدُمُهـم حتَّى عَلوتُهـــمُ وهرَّني رافدٌ منهم ومرفُـــودُ

يؤكد هنا المتوكل على اصالة قوله، وقوة شاعريته، التي استطاع بهما من منافحة خصـمه، فلم يصمد هجاء الآخر له، مستخفاً به، مستصغراً من شأنه، مخلعاً عليه وعلى قومه أوصافاً حسية مذمومة، ولم ينس المتوكل فرصته في اعلاء شأن ذاته الشاعرة، التي تخوض تجربة الحيـاة فـي ضوء ما يتمتع به من رؤية تتحسس الصراع بين الخير والشر، مشيداً بالقيم الانسانية النبيلة مـن خلال انتقاده لسلوك الآخر المشين.

ونراه ينتفض على الآخر إذا ما شعر منه ازدراء لشاعريته، فيقول[٤٩]:{من الوافر}

أعِكرمَ كنتَ كالمبتاعِ بيعـاً أتى بيعَ النَّدامـةِ فاستَقـالا
أقِلْنِي يا ابنَ رَبْعـيٍّ ثنائـي وهَبْهـا مدحةً ذهبتْ ضلالا
تفاوتني عَماي بهـا وكانت كنظـرةِ مَنْ تفرَّسَ ثم مـالا
حَـبَوتُكَ بالثَّناءِ فلـم تثبني ولـم أترُكْ لمُمتدحٍ مقـالا
فلستُ بواصلٍ أبداً خـليلاً إذا لـم تُغْـنِ خُـلَّتُه قِـبالا

نجده في هذه الأبيات يهجو (عكرمة بن ربعي) بعد أن مدحه في مناسبة سابقة[٥٠]، ولم يجن ثمرته وكان يظن أن جائزته ستكون على مرآى من الناس، إلّا أنَّ الممدوح خذله في تحقيق ذلك مما دفعه إلى بيان ندمه، والاعتراف بخطئه، فقد أصابه غمط في صميم كرامته، وليس مـن طبعـه أن يواصل علاقته بأي خليل لا تغن خلته آماله ومساعيه، مؤكداً أنَّ تلك العلاقة تنبع من احساس الآخر بشاعريته التي تمثِّل كينونة وجوده، لذا بدت ذاته متألمة تتجرع انكسارها، ممـا جعلـه أن يواجـه (عكرمة) مظهراً نقمته عليه من خلال الأداة نفسها التي عبرت عن رضاها في وقت سـابق، فبهـا يرفعه وبها يضعه.

الخاتمة

بدا لنا المتوكل الليثي في هذه الدراسة شاعراً معتداً بنفسه، مترفعاً عمّا يراه تافهاً، مستعظماً ذاته يصبو إلى المعالي لاحساسه بتفرده وتميزه، مؤمناً بقدرته التعبيرية التي عرض مـن خلالهـا رؤيته وكشف عن ذاته المتعالية، منطلقاً من تقديره لها، فتجلت في فخره بنفسه من دون أنْ يتكـئ على نسب لشعوره بكفائتها وقدرتها على اجادة الشعر الذي حلّق في عالمه فصـار فيـه (صـقراً،

وسورة من العز) على حد قوله، مشيراً إلى اكتمال أدواته، وخبرته بطرائق الكلام، فانبرى مشمراً عن قوافيه، ليبني قواعد بيته الشعري من دون سقط أو انتحال، متباهياً بذلك أمام الآخرين، يغوص في بحر الشعر، يغيب أحياناً إلّا أنَّنا نتحسس أنفاسه وضرباته.

ولم ينس (أناه) المنبثقة من (النحن) التي تجسدت في فخره بأبيه وقومه، بوصفه فرداً من أفراد مجتمع يتغنى كثيراً بأمجاده المبنية على العصبية القبلية، مؤكداً أنَّه سليل مجد تليد وماضٍ من العزة والشرف والخلق الرفيع.

وقد أفصح المتوكل عن ذاته المتوثبة للفكر والمعاني المعبِّرة عن احاطته الواسعة بفعاليات الحياة الاجتماعية، وملاحظته البارعة في تشخيص دائها، ومن ثمَّ تعيين دوائها في ضوء حكمته، التي كانت نتاج ذهن ثاقب، ومخزون معرفي، وتجارب خصبة، عملت على ترسيخ ذاته، وأهلته أنْ يكون مقنعاً للآخر.

وعمد إلى خلق الآخر في ضوء هيمنة واضحة لذاته، فلا وجود للآخر إلّا من خلاله، فنرى ذاته تتداخل مع موضوعات شعره التي طرقها، سواء أنسيباً كان أم مدحاً أم هجاءً، فهو يستحضر(المرأة) ليؤسس لذاته فعلها الانساني في اطار المثل العليا، ونجده مزهواً بقدراته وامكاناته الابداعية التي تعنى بشخصه على وجه الخصوص تارة، ومفتخراً بقومه لتحقيق(أناه) الواقعية أمام الآخر(الممدوح أو المهجو) تارة أخرى، نافراً من الوضاعة، معرضاً عن الصغائر، متصدياً لمنافسيه في ثقة واطمئنان، مدركاً لغايته، مازجاً ذاته الشاعرة بأناه لاظهار تعاليه على مَنْ أراد تهميشه أو اقصائه من عالم الابداع، مؤكداً أنَّ علاقته بالآخر تنبع من احساس الآخر بشاعريته التي تمثِّل كينونة وجوده.

الهَوَامِشُ:

(١) ينظر طبقات فحول الشعراء: ٦٨١/٢.

(٢) شعر المتوكل الليثي: ٨١.

(٣) ينظر م.ن: ١٥.

(٤) ينظر نظريات الشخصية: د.محمد السيد عبدالرحمن، دار انباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ٢٠ ومابعدها.

(٥) ينظر الأنا والهو: سيغموند فرويد، ترجمة: د.محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢م، ٦٤ــ٦٥.

(٦) ينظر تعزيز تقدير الذات: رانجيت سينغ مالهي و روبرت دبليو. ريزنر، مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٥م، ٤.

(٧) شعر المتوكل الليثي: ٨٨.

(٨) م.ن: ١٢٤.

(٩) م.ن: ١٤٦.

(١٠) م.ن: ٢١٥.

(١١) م.ن: ١٤٥.
(١٢) م.ن: ١٩٤.
(١٣) م.ن: ٢٦٠ــ٢٦١.
(١٤) ينظر نظريات الشخصية، دوان شلتز،ترجمة:حمد علي الكربولي،ود.عبدالرحمن القيسي،د.ت،مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٣م، ١١.
(١٥) م.ن: ٨٨.
(١٦) م.ن: ٨٨ــ٨٩.
(١٧) م.ن: ٢١٤.
(١٨) م.ن: ٢٤٩.
(١٩) م.ن: ٢٥٠.
(٢٠) م.ن: ٢٢٣ــ٢٢٦.
(٢١) م.ن: ٢٧٦.
(٢٢) المتنبي وشوقي: ٢٤٧.
(٢٣) شعر المتوكل الليثي: ٧٩ــ ٨١.
(٢٤) م.ن: ٩٠ــ٩١.
(٢٥) م.ن: ٢١٢ــ٢١٣.
(٢٦) الأدب والفن: ١١٢.
(٢٧) جماليات الشعر العربي: ١٤٥.
(٢٨) العمدة في محاسن الشعر ونقده: ٢/ ١٢١ــ١٢٢.
(٢٩) ينظر دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي: ٢٠٥.
(٣٠) الشعر والشعراء: ابن قتيبة(٢٧٦هـ) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة،(د.ت)، ٧٦/١.
(٣١) شعر المتوكل الليثي: ٧٨.
(٣٢) م.ن: ١٢٢ــ١٢٣.
(٣٣) الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية: ١٨٤.
(٣٤) شعر المتوكل الليثي: ١٤٢ــ١٤٣.
(٣٥) ينظر م.ن: ١٥٩.
(٣٦) م.ن: ١٦٦ــ١٦٨.
(٣٧) م.ن: ٢٤١ــ٢٤٢.
(٣٨) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٦٨. د.عبدالقادر فيدوح، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٢م.
(٣٩) في النص الشعري العربي،مقارنات منهجية: ١٠٩.
(٤٠) شعر المتوكل الليثي: ١٢٥ــ١٢٦.
(٤١) جماليات الشعر العربي: ١٧٠ــ١٧١.
(٤٢) شعر المتوكل الليثي: ١٥٦ــ١٥٧.
(٤٣) م.ن: ٢٠٦ــ٢٠٧.
(٤٤) ينظر البداية والنهاية: ٣١٣/٨.

(٤٥) شعر المتوكل الليثي: ٢٦٣ــ٢٦٤.

(٤٦) م.ن: ٨٣ــ٨٧.

(٤٧) ينظر العين:٢٥٨/٨.الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٧٥هـ) تحقيق:د.مهدي المخزومي،د.ابراهيم السامرائي،دار مكتبة الهلال،د.ت.

(٤٨) شعر المتوكل الليثي: ٢١٥ــ٢١٧.

(٤٩) م.ن: ١٥٩ــ١٦٠.

(٥٠) م.ن: ١٢٥وما بعدها.

المصَـــــــادِرُ وَالمرَاجِــعُ

- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: د.عبدالقادر فيدوح، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٢م.
- الأدب والفن:ميشال عاصي،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،ط٢،بيروت،١٩٧٠م.
- الأنا والهو: سيغموند فرويد، ترجمة: د.محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢م.
- البداية والنهاية: ابن كثير(٧٧٤هـ) حققه وخرّج احاديثه وعلّق عليه:أكرم عبداللطيف البوشي،راجعه:الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط،والدكتور بشار عواد معروف،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية،قطر،ط خاصة،٢٠١٥م.
- تعزيز تقدير الذات: رانجيت سينغ مالهي و روبرت دبليو. ريزنر، مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٥م.
- جماليات الشعر العربي،دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي:د.هلال جهاد،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت،ط١، ٢٠٠٧م.
- دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي:د.عفت الشرقاوي،دار النهضة العربية،بيروت،لبنان،د.ت.
- الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية:د.ابراهيم عبدالرحمن محمد،الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان،دار نوبار للطباعة،القاهرة،ط١، ٢٠٠٠م.
- شعر المتوكل الليثي:د.يحيى الجبوري،مطابع التعاونية اللبنانية،درعون ــ حريصا،لبنان، الناشر:مكتبة الأندلس،بغداد، ١٩٧١م.
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة(٢٧٦هـ) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة،(د.ت).
- طبقات فحول الشعراء:محمد بن سلّام الجمحي(٢٣١هـ):قرأه وترجمه:محمود محمد شاكر،دار المدني،جدة،١٩٧٤م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:ابن رشيق القيرواني الأزدي(٤٥٦هـ):حقَّقه وفصَّله وعلَّق حواشيه:محمد محيي الدين عبدالحميد،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،بيروت،لبنان،ط٥، ١٩٨١م.
- العين:الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٧٥هـ) تحقيق:د.مهدي المخزومي،د.ابراهيم السامرائي،دار مكتبة الهلال،د.ت.
- في النص الشعري العربي،مقارنات منهجية:د.سامي سويدان،دار الآداب،بيروت،ط١، ١٩٨٩م.
- المتنبي وشوقي:مصطفى أمين الرفاعي، منشأة المعارف، الاسكندرية،مصر،٢٠٠٢م.

نظريات الشخصية، دوان شلتز،ترجمة:حمد علي الكربولي،ود.عبدالرحمن القيسي،د.ت،مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٣م.

نظريات الشخصية: د.محمد السيد عبدالرحمن، دار انباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م.

The transcendent self in the poetry of Al - Mutawakil

Dr. Abdulmohsen Jassem Mohammed Al-Jabri
Department of Arabic Language / college of Education / University of Qadisiyah

Abstract :

This research aims to study the phenomenon of the transcendent self in the poetry of Al-Mutawakil Al-Leithi, and it was revealed through his poetry that he is accustomed to himself, and from it to the other. The poetic subjects that he celebrated were going on paths that converge in his own sense which transcends others. The tendency to ascend to height and height was rooted in his poetry , so he began to confidently move, not to go through the poetry without being present in the avant-garde himself, the same as the bulk of his poetry that did not extinguish.